ابن سينا وقصص الخلود

أ.د. محمد كريم الكواز
كلية اليرموك الجامعة
mkalkawaz@gmail.com

ملخص البحث:

تناول الفلاسفة اليونانيون والمسلمون موضوع النفس، وهم يريدون به الإنسان، مبدأه ومصيره، وكان ابن سينا يهتمُّ اهتماماً خاصاً بخلود الإنسان بعد موته من خلال المعاد النفساني، فقد تناوله في رسائله وكتبه، وهو يقصد به خلودَ الإنسان في الآخرة، في الجنة أو في النار.

وقد وظَّف لتحقيق ذلك السرد القصصي، فكتب "رسالة حيِّ بن يقظان"، و"رسالة الطير" و"قصة سلامان وأبسال"، وهي من القصص الرمزية، أتاحت له التعبير عمَّا أراد، من خلال تنويع الشخصيات والأحداث، بحسب الظروف التاريخية التي مرَّ بها.

الكلمات المفتاحية: ابن سينا، المعاد النفساني، القصص الرمزية.

Avicenna and the Tales of Immortality

Professor Dr. Muhamed Kareem Al-Kawaz
Yarmouk University College
mkalkawaz@gmail.com

Abstract

The Muslim and Greek philosophers dealt with the subject of the soul meaning man, his origin and his destiny. Ibn Sina was particularly interested in the immortality of man after his death through the psychological resurrection. He dealt with it in his letters and books, meaning the immortality of man in the afterlife, in heaven or hell. To achieve this, he employed narrative storytelling, so he wrote "The Epistle of Hayy ibn Yaqzan", "The Epistle of the Bird" and "The Story of Salaman and Absal", which are symbolic stories that allowed him to express what he wanted, through diversifying the characters and events, according to the historical circumstances he went through.

المقدمة

ابن سينا الشيخ الرئيس، أبو علي حسين بن عبد الله (وُلِد 375 – تُوفِّي 427 هـ) لم تعرف الثقافةُ العربية قيمته العالمية، وأهميتَه على المستوى الإنساني، مثلما عرفته الثقافةُ الغربية، فقد كان له تأثيرٌ في العالم اللاتيني القديم، وظلَّ له في العالم الحديث، انعكس أوَّلاً في تخصيص اسمٍ لاتيني له: (Avieenna)، كونَه مرجعاً أصيلاً لمعارفَ مختلفة.

وتراث ابن سينا، وهو كاتب موسوعي، غنيٌّ ومعقَّدٌ، وعلى الرغم من كثرة دراستهُ،فإن فيه مناطقَ كثيرة غير مكتشفة[1]، فما الذي بقي من ابن سينا؟، وماذا نريد نحن منه الآن؟، لقد أسهمَ ابنُ سينا في بناء الحضارة الإنسانية، وتقدَّمَ بها خطواتٍ، فهل تثمر نزعتُه الإنسانية في عالم اليوم؟، هذا ما يسعى البحث إلى تقديمه من خلال دراسة فكرة الخلود عنده.

النفس والمعاد الأخروي

موضوع النفس من موضوعات الفلسفة اليونانية، وهي عند أرسطو (ت 322 ق.م) الذي أفاد منه الفلاسفة العرب الأوائل مثل: الكندي والفارابي ثمَّ ابن سينا ـــــ في المرتبة الأولى، ذلك أن معرفة النفس تعين على معرفة الحقيقة الكاملة، وأنها مبدأ الحيَوان (الحياة)[2]، وقد صرَّح ابن سينا بأن النفس هي الإنسان، إذ هي "ما يشيرُ إليه كلُّ إنسان بقوله: أنا"[3]، وتناولها بهذا المعنى في كثير من كتاباته مثل: "مبحث عن القوى النفسانية،" و"أحوال النفس"، و"في معرفة النفس الناطقة وأحوالها"، و"في الكلام على النفس الناطقة"[4]، وإذا أضفنا الفصولَ المتعلِّقةَ بالنفس في كتب ابن سينا الأخرى، مثل: "الشفاء" و "النجاة" و"الإشارات والتنبيهات" وغيرها، فإننا سنضع اليد على مبلغ عناية ابن سينا بالإنسان.

وموضوع النفس أو الإنسان عند ابن سينا وغيره، يتضمَّن أولية وجود النفس، واشتراك الموجودات فيها، وأنواعها، ومصيرها بعد الموت، سوف نهتمَّ هنا بمصيرها بعد الموت، أو ما يُعرف بالمعاد الأخروي، لأن لابن سينا موقفاً منه متميِّزاً، ولأن منه تنبثق فكرة للخلود، وهو موضوع الدراسة.

في المعاد الأخروي في الثقافة الإسلامية رأيان:

الأول: المعاد الجسماني، وهو وجود الإنسان بعد الموت في الآخرة وجوداً مادياً، وهذا الرأي مبني على آيات قرآنية كثيرة، تنصُّ على مشاهد النعيم ومشاهد العذاب، حيث يظهر الإنسان فيها جسماً، وللتمثيل لا للحصر قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

[1] ابن سينا، وتأثيره في العالمين: العربي واللاتيني: 18.

[2] النفس لأرسطوطاليس: 3.

[3] أحوال النفس: 183.

[4] سيرتي: 142. أحوال النفس:203.

وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ .بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ سورة الواقعة: 15- 22، 52 - 55. فالمتنعِّمون في الجنة والمعذَّبون في النار، موجودون في الآخرة بهيئة أجسام إنسانية، يقومون بأفعال معروفة مثل: الجلوس والأكل والشرب.

الثاني: المعاد النفساني، وهو وجود الإنسان في الآخرة بوصفه نفساً فقط، وهو رأي يعتمد على مفهوم الإنسان، فالذين رأوا أن المعاد نفساني، وهم الحكماء أو الفلاسفة، قالوا إن الإنسان هو بصورته الخاصة، لا بمادته (اللحم للذي يشترك فيه مع الحيوان)، والصورة عندهم هي الوجود الفعلي للشيء، فكلُّ شيء بالفعل يُسمَّى صورة[5].

يؤدي الاعتقاد بالمعاد النفساني إلى خلود الإنسان، وعدم فنائه في الآخرة، سواءً أكان في الجنة، كما في وصف المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة الحديد: 12. أم في النار، قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ سورة آل عمران: 87 - 88. وذلك لأن الإنسان سيكون روحاً فقط، والروح لا تفنى كونها من الله تعالى، وقد جاءت الآيات القرآنية تثبت هذا، قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سورة الحجر: 29. وقال في خلق عيسى، في قصة مريم ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنبياء: 91. والله تعالى هو الخالد الباقي بعد فناء الوجود، قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ سورة الرحمن: 26 - 27.

ويظهر رأي ابن سينا، وهو يتبنَّى الرأي الثاني في توضيحه أن مشاهد النعيم والعذاب جاءت في القرآن الكريم، على سبيل التشبيه والتمثيل، قال: لو وصلت هذه الأمور إلى جمهور العلمة، وهم غليظة طباعُهم، متعلقة بالمحسوسات الصرفة أوهامُهم، لخرج الأمر عن قدرتهم، لذا عمدت الشرائع إلى خطاب الجمهور بما يفهمون بالتشبيه والتمثيل، واستند في ذلك إلى أن مسألة التوحيد، وهي من مسائل الفطرة الإنسانية، تحتاج إلى معرفة الكمِّ والكيف والأين والمتى وغيرها للوصول إلى مغزى أن الله واحد، وإذا كان الأمر في التوحيد

[5] التعليقات: 174.

هكذا، فكيف فيما هو بعدها من الأمور الاعتقادية؟[6]، لذا حرص ابن سينا على ذكر المعاد النفساني الذي يؤدي إلى خلود الإنسان، وتوضيحه وشرحه ببراهين في أغلب المواضع التي يتطرَّق فيها إلى النفس[7]، وعمل من جهة أخرى، على بثِّه من خلال السرد القصصي، في "قصة حيِّ بن يقظان"، و"رسالة الطير"، و"قصة سلامان وأبسال".

قصة حيِّ بن يقظان

ملخَّصُ القصَّة أن النفسّ (الإنسان) تخرج متنزِّهةً، ومعها ثلاثةُ رفاقٍ، هم الغضبُ والشهوةُ والتخيُّل، فتلقى شيخاً مهيباً بهياً، اسمه حيُّ بن يقظان، وهو العقل الفعَّال عند الفلاسفة، تسألُ النفسُ الشيخَ عن هويتهِ ونسبهِ وعملهِ، فتعجبُها إجابتُه، حينما تجدُه حكيماً عارفاً.

وتتعلَّقُ به، وتسيحُ معه، والشيخُ يصفُ العالمَ، من الأرضِ، إلى الأفلاكِ السماوية، إلى نفوسِ الأفلاكِ، والعقولِ المفارقةِ، الى المبدأ الأوَّل، ويصف كذلك رفاق النفس، وهم قواها الملازمة لها، فيدعوها إلى التخلُّصِ منهم بالتغلُّب عليهم، وذلك بالاغتسال بعين خرَّارة، أي تعلُّم علم المنطق؛ كي تستطع بسياحة متقطِّعة، أن تُتمَّ حياتها، وتفارق رفاقها كليَّاً بعد الموت[8].

بدأت القصة بقول الراوي: "إنه قد تيسَّرت لي، حين مُقامي ببلادي، برزْةٌ برفقائي إلى بعضِ المنتزَّهات المكتنفة لتلكَ البقعة". وقد ابتكر ابنُ سينا الراويَ للذي يتكلَّم أو يقصُّ الأحداث في القصة بصفته إنساناً، ابتكره وهو حبيسٌ في قلعة فردجان (فردقان)، قرب مدينة همدان في إيران، وكان ابن سينا آنذاك شخصاً مرموقاً، طبيباً مشهوراً، وفيلسوفاً معروفاً، عمل مستشاراً عند الأمير نوح بن منصور (ت 387 هـ)، ووزيراً لشمس الدولة (ت 411 هـ)، ومستشاراً لأكثر من أمير[9]، وانتهت القصة بقول الشيخ حيِّ بن يقظان: "ولولا تقرُّبي إليه بمخاطبتِك، منبِّهاً إيَّاك، لكان لي به شاغلٌ عنك، وإن شئتَ اتَّبعتني إليه. والسلام".

وما بين البدء والانتهاء رحلة الراوي (الإنسان) مع الشيخ (العقل الفعال) يتعرَّف فيها الإنسان إلى قواه الجسمية، وإلى العناصر الأربعة: الماء والنار والهواء والتراب التي تتكون منه الموجودات الأرضية، ثم يرتقيان إلى السماء، فيتعرف الإنسان إلى الأفلاك التسعة، ويعرف أن الفلك العاشر يستمدُّ المعرفة من المبدأ الأول، وهو الملَك جبريل، أو يفيض عليه جبريل بها (بحسب

[6] الأضحوية في المعاد: 97، 102.
[7] أحوال النفس: 172، 183، 195، المبدأ والمعاد: 109، الأضحوية في المعاد: 87.

[8] رسالة حيِّ بن يقظان، طبعة المهرني 1: 22، وما بعدها، وسأقتبس منها النصوص اللازمة.
[9] سيرتي: 118، 58، 66، 72، 76.

نظرية الفيض).

ويكتشف الإنسان أن الشيخ هو العقل الفعال الملازم لجبريل، وجبريل هو "العقلُ الأخيرُ من العقولِ الملَكية المعبَّر عنها في الشرعِ بالملَك"[10]، فالشيخ من عالم آخر، لذا ودَّع الإنسان في نهاية القصة، ولكن مغزى القصة يحثُّ الإنسان على نيل السعادة في الآخرة، عن طريق التحاق عقله بالعقل الفعال، أو التحاق الإنسان بالشيخ، والشيخ سائر على الطريق المؤدي إلى الله تعالى، إلى الخلود، قال ابن سينا: إذا كان (الإنسان) كاملاً بالعلم والحكمة والعمل الصالح، انجذبَ إلى الأنوارِ الإلهية، وأنوارِ الملائكة، والملأِ الأعلى انجذابَ غبرةٍ إلى جبلٍ عظيمٍ من المغناطيس، وفاضت عليه السكينةُ، وحقَّت له الطمأنينة، فنُوديَ من الملأ الأعلى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ سورة الفجر: 27- 30[11].

رسالة الطير

ملخصها أن سرباً من الطيور، ومنهم راوي القصة، وهو طير منهم وقعَ في قفص، اغتمَّت الطيور من الأشراك حولها والحبائل في أرجلها أوَّل الأمر ثمَّ استأنست بها، والطيور هي الناس، والراوي هو النفس أو الإنسان، والأشراك والحبائل هي قوى النفس البدنية، كما كان الحال في قصة حيِّ بن يقظان، ثمَّ احتللت الطيور للخروج، والحبلئل في أرجلها، فصعدت جبلاً شاهقاً، ثمَّ اجتازت ثمانيةَ شواهقَ، لتصلَ إلى مدينةِ الملِك الأعظم، حيث دُهشت من عظمة الملك، وشكت إليه أمرها، فوعدها برسولٍ، يرسله إلى مَن عقَد الحبائل ليحلَّها[12].

يبرز صوت الراوي في بداية القصة، فيقول: "برزتْ طائفةٌ تقتنصُ، فنصَبوا الحبلئلَ، ورتَّبُوا الشركَ، وهيَّأوا للطعامَ، وتوارَوا في الحشيش، وأنا في سريَّةِ طيرٍ، إذ لحظُونا فصفَّروا مستدعين، فأحسَّسنا بخصبٍ، ما تَخالجَ في صدورِنا ريبُه، ولا زعزعتْنا عن قصدِنا تُهمُه".

وهو طير من الطيور يمثِّل الإنسان، وكثيراً ما تتمثَّل الموجودات الروحانية لأهل المشاهدة في صور طيور، ذوات أجنحة[13]، والملائكة في القرآن الكريم طيور أيضاً: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ سورة فاطر: 1. وهي رمزية معروفة.

الأشراك والحبائل في الرجل علامة على البدن الذي يقيِّد النفس، ويعيق طيرانها وصعودها، وعودتها إلى عالمها العقلي الروحي الأصلي، وعلامة البدن هذه كانت في عالم المُثُل الأفلاطوني، إذ الكائنات البشرية التي أُسكنت في كهف تحت الأرض، منذُ

[10] شرح العلامة المناوي: 35.

[11] أحوال النفس: 186.

[12] رسالة الطير، طبعة المهرني 2: 42 وما بعدها.

[13] شرح العلامة المناوي: 31.

طفولتها، كانت سيقانهم وأعناقهم مقيَّدة، فلا يمكنهم أن يتحركوا، أو يروا إلا ما هو أمامهم فقط، لأن السلاسل تمنعهم من إدارة رؤوسهم، وعندما رأوا ظلال أشخاص على حائط أمامهم، بفعل نار وُضعَت خلفهم، اعتقدوا أن الضلال حقائق، وليست مُثلاً لأشخاص حقيقيين[14].

مرَّت الطيور في رحلتها بجبال وأودية،ـقال الراوي: "فتأدَّى بنا الطيرانُ بين صدفي جبلِ الإلهِ في وادٍ معشبٍ خصيبٍ، بل مجدبٍ خريب، حتَّى تخلَّف عنَّا جنلبُه، وجزنا جيرتَه، ووافينا هامةَ الجبلِ، وإذا لُمامنا ثماني شواهقَ، تنبو عن قللِها اللواح". وهي مشاهدات الراوي مع الشيخ في قصة حي بن يقظان نفسها، والوادي المجدب الخريب هنا هو عالم العناصر الأربعة، والشواهق الثمانية هنا هي الأفلاك في القصة.

تنتهي الرحلة بالوصول إلى العقل الفعال، وتشتكي الطيور حالها، فيقول: "لن يقدرَ على حلِّ الحبائلِ عن أرجُلِكم إلا عاقدوها، وإني مُنفدٌ إليهم رسولاً، يسومُهم إرضاءَكم، وإماطة السوءِ عنكم، فانصرِفوا مغبوطين". والرسول هو هو ملَك الموت؛ لأن بالموت تتخلص النفس من القوى البدنية العلاقة بها، فتعود إلى عالمها الروحي للذي جاءت منه، عالم الخلود.

ويظهر صوت ابن سينا من خلال الراوي: "وكم من أخٍ قرعَت سمعَه قِصتَّي!، فقال: أراك مسَّ عقلَك مسٌّ، أو ألمَّبك لمَمٌ، ولا وللّه، ما طرتُ، بل طارَ عقلُك، وما اقتنصتَ، بل اقتنصَ لبَّك، أنَّى يطيرُ البشرُ، أو ينطقُ الطيرُ". وهو صوت متذمِّر، يلوم إخوانه من الناس أنهم لم يصدقِّوا قصَّة طيرانه.

في ايَّام ابن سينا في همدان، في بلاط الأمير أبي الحسن، سماء الدولة بن شمس الدولة حكم بين سنة (412 – 421 هـ)، كاتب الأمير علاء الدول بأصفهان للعمل معه، ووقعت الرسالة بيد الأمير أبي الحسن، وحبسه بقلعة فردجان، حيث كتب "قصَّة حيِّ بن يقظان".

ثمَّ أخرجه الأمير، ورجع به إلى همدان، وأنزله في إقلمة جبرية، وسُجِن بعض الوقت[15]، حيث صنَّف فيها بعض كتبه، والعلاقة بالأمير سيئة، ذلك أنهم طلبوا استيزار ابن سينا، فأبى الأمير ابن شمس الدولة، تقول السيرة: وكان قد تقضَّى على هذا زمان، وتاج الملك (الوزير) يمنِّيه بمواعيد جميلة[16]. والظاهر أنه يؤجِّل توليته الوزارة، في هذا الأثناء كتب "رسالة الطير"[17]، بعدها هرب متخفِّياً إلى أصفهان، فقد يكون المقصودُ بالذين ظلموا

[14] المتخيَّل المقدَّس: 83.

[15] موجز دائرة المعارف الإسلامية: 233.

[16] سيرتي: 84، 85، 86.

[17] تاريخ الفكر في العالم الإسلامي: 396.

الأمير أو الوزير، وقد يكون لإنهاء القصَّة بالموت علاقة بهذه الحالة.

هناك قصَّة قديمة، من قصص كليلة ودمنة، ترجمها ابن المقفَّع (ت 142 هـ)، بين الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا، تبدأ بالعلاقة بين الإخوان، وبأنهم هم الأعوان على الخير، المواسون وقت الشدّةِ والمكروه، وهو ما ألمح إليه ابن سينا في بدلية "رسالة الطير". وفيها قصَّة "الحمامة المطوَّقة، وأن صيَّاداً نصب شبكته، ونثر فيها الحبَّ، وكمنَ غيرَ بعيد عنها، فمرَّت حملمةً، يقال لها: المطوَّقة، كانت سيِّدة الحمام، ومعها حمام كثيرٌ، ورأت الحبَّ، ولم ترَ الشبكة، فانقضَّت وانقضَّ الحمام معه، فوقعنَ في الشبكة جميعاً.

وجعلت كلٌّ حمامةٍ تضطرب في ناحيتها، وتعالج الخلاص لنفسها. فقالت المطوقة: لا تخاذلنَ في المعالجة، ولا تكن نفسُ كلِّ واحدةٍ منكنَّ أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن تعاونَّ، فلعلَّنا نقلع الشبكة، فيُنجي بعضُنا بعضاً، ففلعن ذلك، فانتزعنَ الشبكة حين تعاونَّ عليها، وطرنَ بها في علو السماء[18].

يظهر توظيف ابن سينا للقصَّة في أمرين:

الأوَّل، وهو مهمٌّ عنده، للتلميح إلى علاقته بالأمير أو الوزير الذي خذله، وتثبيته في كتبه.

الثاني، وهو مهم عندنا، استمداده من قصص قديمة، وتوظيفه في التعبير عن أفكاره.

قصة سلامان وأبسال

ملخص القصة أن ملِكاً اسمه سلامان، كان له أخ أصغر منه اسمه أبسال، وللملك زوجة تراود أخاه، وتغريه دون جدوى، لانه كان عفيفاً، فاحتللت الزوجة أن تزوَّجه أختها، وفي ليلة الزفاف أظلمت المكان، ونامت في فراش أختها، ودخل عليها أبسال، فرأى في ضوء برق خاطف وجه زوجة أخيه، فانسحب على الفور من الغرفة، وترك ابسال البلاد على رأس جيوش أخيه ليقودها في الحرب وبعد مدة يعود ابسال عل لمل في أن تكون زوجة أخيه قد نسيته إلا أنها بقيت معلقة به فلم يقبلها فأمرت الطباخ بدس السم في طعامه فمات ،ولما علم سلامان بموت أخيه اغتم وناجى ربه في أن يكشف له الحقيقة فتجلت له الحقيقة فعاد إلى امرأته والطباخ والطاعم فسقاهما السم فماتوا.

وفي تأويل شخصيات القصة أن سلامان رمز للإنسان، وأبسال رمز للعقلِ النظري عند الإنسان، وعنده عقل عملي أيضاً، ويشير أبسال إلى درجة الإنسان في التصوف، إذا كان سالكاً طريقه، وامرأة سلامان هي رمز للقوَّةُ البدنيةُ الأمَّارةُ بالشهوةِ والغضبِ الملازمة للإنسان، ويرمز عشقُها لأبسالَ

[18] كليلة ودمنة: 124.

إلى ميلها إلى تسخيرِ العقل من الإنسان، وجعله في خدمتها[19].

كتب ابن سينا القصة في أصفهان، بعد استقراره بحمالية الأمير علاء للدولة، بين سنتي (415 – 428 هـ) في أصفهان كتب "مقامات العارفين" من كتابه "الإشارات والتنبيهات"، وفيها أشار إلى قصة سلامان وابسال، قال: "اعلم أن سلامان مثلٌ ضُرِب لك، وأن أبسالاً مثلٌ ضُرِب لدرجتك في العرفان، إن كنت من أهلهِ"[20]، والسياق الذي ذُكرت فيه قصَّة سلامان وأبسال هو التنبيه على اختلاف درجات المعرضين عن الدنيا، وهم ثلاثة أصناف، يتميَّز العارفون باختلافٍ في للدرجة، وجاءت قصَّة سلامان وأبسال للتمثيل لهذا الاختلاف، أي كلما أوغل الإنسان في اتباعه طريق الصوفية كان أقرب إلى الله تعالى، وأقرب إلى نيله الخلود في الجنة.

الرحلة إلى الخلود

تتيح قصتا "حي بن يقظان" و"الطيور" النظر إلى عمل ابن سينا فيهما على أنه رحلة إلى الخلود، فقد رحل ابن سينا في قصَّة حيِّ بن يقظان" إلى المبدأ الأوَّل، وذكرَ: "العين الحمئة، وجبل قاف"، وكرَّر عبارة: "وتتلوها أمَّة"[21]، وهذه موضوعات من رحلة ذي القرنين في الثقافة الإسلامية، دوَّنها وهب بن منبِّه (ت 114 هـ)[22].

كان ذو القرنين يبحث في رحلته عن عين الحياة، مَن شرِب منها شربة لم يمت أبداً حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت[23]. فذهب ذو القرنين في طلبها وجعل الخضر على مقدمته، فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات، فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها[24]، وقد أفاد ابن سينا أفاد من موضوعة (ثيمة) الرحلة في قصَّة ذي القرنين، فوظَّفها في قصته.

هناك علاقة بين سيرة ابن سينا وكتابته، فقد كان يتنقل بين البلدان، وفي سيرته ذكَر: "ثم دعت الضرورة"[25]، ومن الناحية التاريخية ظهر أن هناك أسباباً آنية للتنقُّل، ولكن النظر من بعيد إلى ابن سينا، يُظهر أنه كان يتنقَّل لسبب آخر، هو البحث عن المجد[26].

في "رسالة الطير"، والراوي هو الإنسان (النفس العقل)، على شكل طير من الطيور، كانت الطيور (النفوس) في الشراك المنصوبة لها، والحبائل في أرجلها (القوى البدنية)، وهي تعاني منها، ثمَّ فكَّرت في التخلص منها بالطيران إلى الملِك (العقل الفعال)،

[19] الإشارات والتنبيهات 4: 53 وما بعدها.
[20] نفسه 4: 58.
[21] رسالة حيّ بن يقظان، طبعة المهرني 1: 8، 9، 10.
[22] المبتدأ لوهب بن منبِّه: 535، 538، 540.
[23] العظمة 4: 1462.
[24] البداية والنهاية 2: 547.
[25] سيرتي: 63.
[26] ابن سينا وتأثيره في العالمين: العربي واللاتيني: 20.

وفي طريقها تعرضت لكثير من الصعاب، إذ مرَّت بجبال شاهقة (الأفلاك، الأجرام السماوية).

وشكت للملك حالها، فطمأنها، وقال: الذي وضع الحبائل يفكَّها (أي الله تعالى)، وأرسل معها رسولاً (ملك الموت) يفكَّ حبائل أرجلها، وعاد الراوي الإنسان يحكي لأصدقائه ما جرى له، فلم يصدِّقوه، ونصحوه بالراحة وتناول الطعام والشراب، لكنه جلب الحلَّ وعاد، وحقَّق هدف الطيران (الرحلة)، فالموت يخلِّصه من البدن وقواه الضاغطة عليه، ليحيا بعده في المعاد خالداً[27].

مع الخلود في المفهوم الحديث

كتب ستيفن كَيْف سنة (2017) في كتابه "الخلود" أن هناك أربع روايات عن الخلود:

1- أن يبقى الإنسان حيَّاً، وهذا مستحيل في الوقت الحاضر، وأعلى ما وصل إليه معدل عمر الإنسان هو (125 سنة)، والأطباء يحاولون رفع سقف عمر الإنسان إلى بضع سنوات، وسيظل حلم العيش لقرون حلماً ضبابياً.

وكان هذا الأمر مستحيلاً في الماضي أيضاً، وفي حديث رسول الله ﷺ تحديد لعمر الإنسان في ذلك الزمن،ـقال: أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز[28].

وظاهرة المعمَّرين، في الثقافة العربية، تجاوزت الحقيقة إلى الحلم الإنساني، وقد تجسَّد في أساطير، أشهرها أسطورة الخضر، فهو أطول بني آدم عمراً[29]، فكان تجاوز الموت في هذه الظاهرة، من خلال السرد القصصي، وهو ممتعٌ في التسلية وقضاء الوقت.

2- الاعتقاد على الرغم من حتمية الموت، ببعث الأجسام مرة أخرى، وهو عودة للحياة بأجسام الحياة الماضية، وتبرز هنا إشكاليتان، الأولى: إشكالية تحوُّل الهوية، إذ لا بدَّ من هيئة مختلفة عما كان عليه الإنسان قبل موته، لمواجهة الأمراض والموت مرَّة أخرى، وبهذا لن تكون هويته الجديدة مطابقة للسابقة من حيث خزين الأفكار والذكريات.

الثانية: إشكالية النسخ، ستكون العودة للحياة بعد الموت بنسخة، ذات حياة وتجارب وذكريات أخرى، غير التي كانت للإنسان قبل الموت، نسخة الإنسان الجديدة، مثل واحد من التوأمين المتطابقين، لا بد لكلٍّ منهما هوية خاصة.

وعودة الحياة بأجسام ثانية، هو المعاد الجسماني للذي فنَّده ابن سينا، وخلص إلى أن الإنسان الجديد المعاد بالنشأة الثانية في الآخرة، هو

27 تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور: 190.

[28] سنن ابن ماجة 4: 86.

[29] المعمَّرون والوصايا: 3.

غير الإنســـان القديم الميِّت في للدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة للإنســان الآخر الجديد، ومن ثمَّ أبطل ابن سينا المعاد بالجسم.

3- حلم الاستمرار في الحياة بشكل روح، وقد صُوِّرت الروح بأنها كيان منفصل عن الجسم، وهذا رأي ابن سينا في خلود الإنسان، وقد جهد في بنائه وتكوينه والدفاع عنه.

ولكن علم الأعصاب الحديث يبيِّن أن العقل (ممثلاً بوظيفة الوعي والذاكرة وإحساس الإنسان بنفسه)، مرتبط بالدماغ، وعندما تموت أجزاء من الدماغ، بسبب إصابة أو سكتة دماغية أو مرض الزهايمر، تموت معها تلك الوظائف، فلا عقل دون دماغ، وكذلك لا روح دون جسد.

ولو تأتَّى للعلماء أن يحتفظوا بالدماغ بالتجميد، أو بمسح المشابك العصبية فيه، وفي الحالتين العمل على بعث روح علمية،ـفإن العقبات تجعل ذلك مستحيلاً؛ لأسباب طبية.

4- الميراث، وفيه بقاء للذكر عن طريق المجد أو الآثار المادية التاريخية أو الأبناء، ولكنه ليس خلوداً بمعنى انعدام الموت،ـبل هو بقاءٌ في للذاكرة، ـقال أحدهم: لا أريد أن أخلد في قلوب أبناء بلدي، بل أريد أن أحيا في بيتي، والميراث هو الخيار المتاح حتى اليوم، وهو أفضل من لا شيء[30].

لقد حقَّق ابن سينا خلوده بكتبه، وارتقى بتخصصه إلى القمة، قال أحمد فؤاد الأهواني، وكان مهتمَّاً بابن سينا اهتماماً متميِّزاً، وكتب عنه مراراً: هو بين الفلاسفة العرب أشهرهم، وأعظمهم منزلة، وأشيعهم ذكراً، وقد امتدَّ أثره إلى الغرب، بعد ترجمة آثاره في الفلسفة وفي الطبِّ إلى اللغة اللاتينية، وظل كتابه "القانون" مرجعاً لطلبة الطبِّ في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر، وأخذ القديس توما الأكويني بفلسفته، فكانت بداية الفلسفة الغربية[31]، وقال: غابرييلي: مؤلفاته تنكارية فاخرة، وروحه تحلِّق في جوها الحقيق، جوِّ الصيت والخلود في ألباب الناس[32].

الخاتمة

لم يكتب ابن سينا في الخلود رسالة أو كتاباً، لكنه تبَّنى معتقد المعاد النفساني بعد الموت في الآخرة، وهذا الاعتقاد يؤدي إلى خلود الإنسان في الجنة أو في النار، وقد عمل على تجلية المعاد النفساني في كثير من المواضع التي تناول فيها موضوع النفس، وكتب ثلاثة قصص: "حيِّ بن يقظان"، و"الطير"، و"سلامان وابسال" وبثَّ فيها فكرة المعاد النفساني،

[30]- سماوات على الأرض: 11.

[31]- ابن سينا، الأهواني: 17.

[32]- ذكرى ابن سينا1: 165.

من خلال تجسيدها في شخصيات سردية، وكان التمثيل في قصة "سلامان وأبسال" ضئيلاً بالمقارنة بما في "حيِّ بن يقظان"، و"الطير".

تهمُّ فكرة الخلود كلَّ إنسان، إذ هي ترتبط بوجوده في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكان إسهامُ ابن سينا فيها، وغيره من الفلاسفة كذلك، معلماً من معالم بحث الإنسان عن مصيره، بغض النظر عن تأييده أو رفضه، وهو مما يجدر التعرف إليه أمام كثرة الآراء الحديثة الوافدة من ثقافات أخرى.

المصادر والمراجع

[1]. ابن سينا وتأثيره في العالم العربي وللاتيني، جول يانسنز، منشورات روتليدج، لندن، 2006. (بالانكليزية).

[2]. ابن سينا، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، 1958.

[3]. أحوال النفس، رسللة في النفس وبقائها ومعادها، ويليها ثلاث رسائل في للنفس لابن سينا، تحقيق أحمد فؤاد الأهولني، طبع عيسى للبلبي للحلبي وشركاه، القاهرة، 1952.

[4]. الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، مع شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1977.

[5]. الأضحوية في المعاد، ابن سينا، تحقيق حسن عاصي، منشورات شمس تبريزي، طهران، 1382 هـ.

[6]. البدلية والنهلية، ابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، مصر، 1997.

[7]. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية – مصر، 1980.

[8]. تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، نشر لجنة للتأليف والترجمة والنشر، للقاهرة، ط2، 1948.

[9]. التعليقاتن ابن سينا، تحقيق حسن مجيد العبيدي، منشورات ضفاف – الاختلاف، بيروت – الجزائر، 2018.

[10]. ذكرى ابن سينا، غابرييلي، ضمن المنتقى من دراسات المستشرقين، ترجمة صلاح للدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1955.

[11]. رسالة الطير، ضمن رسائل الشيخ الرئيس ابن سينا في أسرار الحكمة المشرقية، تحقيق ميكائيل بن يحيى المهرني، مطبعة بريل، ليدن، 1889.

[12]. رسالة حي بن يقظان ضمن رسائل الشيخ الرئيس ابن سينا في أسرار الحكمة المشرقية، تحقيق ميكائيل بن يحيى المهرني، مطبعة بريل، ليدن، 1889.

[13]. سماوات على الأرض، البحث

العلمي عن الحياة الآخرة والخلود واليوتوبيا، ترجمة رزان حميدة وآخرين، دار سطور، بغداد، 2022.

[14]. سُنَن ابن ماجه، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

[15]. سيرتي (سيرة ابن سينا)، وليم غولمان، ترجمة نديم لكوَّاز، شركة الوراق للنشر، لندن، 2024.

[16]. شرح العلامة المناوي على قصيدة النفس لابن سينا، مطبعة الموسوعات بباب الشعرية، مصر، 1900.

[17]. العظمة، أبو الشيخ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، 1408 هـ.

[18]. كليلة ودمنة، عبد الله بن المقفع، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1937.

[19]. المبتدأ، وهب بن منبِّه، جمع محمَّد كريم الكواز، المركز الأكاديمي للأبحاث، العراق، 2020.

[20]. المبدأ والمعاد، ابن سينا، تحقيق عبد الله بوراني، انتشارات مؤسسة مطالعات إسلامي دانشكاه مك كيل، طهران، 1243 هـ.

[21]. المتخيَّل المقدَّس، المفهوم والتمثيل والمؤسسة، محمد كريم الكواز، دار رؤية، القاهرة، 2023.

[22]. المعمَّرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني (ت 250 هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961.

[23]. موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، 1998.

[24]. النفس، أرسطاطليس، ترجمة أحمد فؤاد الأهولني، المركز القومي للترجمة، ط2، 1015.